كلمة العدد

إنها حرب القلق والخوف

بقلم
د. محمود جمال أبو العزايم
رئيس التحرير

الأزمة المالية العالمية لم تعد مقصورة على تعثر بعض المؤسسات، أو خسارة بعض رؤوس الأموال، ولكنها عصفت بمقومات النظام الرأسمالى التى ظلت راسخة فى ذهن الكثيرين، وبينت جوانب عجز كبيرة فى بنيته، فضلا عن الممارسات السلبية التى تعنى غياب الرقابة والشفافية فى أداء المؤسسات الاقتصادية الرأسمالية.

وبدأت الدول الرأسمالية تدور حول نفسها لتوقف عجلة الانهيارات هنا وهناك، لتفيق بعد ذلك على أهمية وجود خطة حقيقية للإصلاح الإقتصادى لنحقق الاستقرار الشامل.

ولكن هل هذه الأزمة سوف تؤثر على الاقتصادات العربية بطريقة سلبية؟.. والإجابة هنا تكون بنعم.. إن التأثيرات السلبية على الاقتصادات العربية سوف تأخذ أشكالا متعددة، إلا أنها سوف تختلف من دولة إلى أخرى حسب مدى علاقاتها بالاقتصاد العالمى.

ويأتى على قائمة هذه التأثيرات السلبية، حالة التباطؤ التى يتوقع حدوثها فى الاقتصاد العالمى وأثر ذلك على الطلب على النفط، سواء كان ذلك على الصعيد الأمريكى أو على صعيد الاقتصادات الآسيوية والمرتبطة بشكل كبير بالأسواق الأمريكية، هذا من جانب، ومن جانب آخر فهناك تأثير سلبى محتمل على التدفقات السياحية إلى المنطقة العربية، وكذلك حجم الإنفاق السياحى، وهذا بدوره سوف يؤثر على البلدان العربية التى تعتبر السياحة فيها موردا هاما للدخل القومى والنقد الأجنبى.

ولن تكون الاستثمارات الأجنبية المباشرة بعيدة عن الآثار السلبية، فمن المنتظر أن تتراجع هذه التدفقات على الأقل فى الأجلين القصير والمتوسط، ويتوقع أن تتأثر جوانب اقتصادية أخرى مثل تحويلات العاملين العرب بالدول الخارجية، وأيضا استثمارات المصارف العربية بالخارج ، وحجم التجارة السلعية بين أمريكا والعالم العربى التى تصل إلى نحو ١١٣ مليار دولار، وتسفر عن فائض لصالح الجانب العربى بنحو ٤١ مليار دولا .

ولكن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن حاليا هو.. هل انطفاء الرأسمالية الغربية يعنى سطوع المسلمين تلقائيا؟ والإجابة هنا لا.. ومن هنا فإن الذين ينتظرون هلاك الآخرين ليتقدموا هم لن يحصلوا على هذا التقدم أبدا، إذ إن التقدم هو جهد ذاتى متعلق بفكر الذات وإبداعها وفعلها وصلاحها «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم».

والإسلام منزل من (رب الناس، ملك الناس، إله الناس)، أى للناس كلهم: بلا تفريق ولا تمييز.

والإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، فلا نبى بعد خاتم النبيين، ولا وحى بعد القرآن. ولما كان الله الرحمن الرحيم اللطيف الودود أرحم بعباده من أن يتركهم سدى، بلا هدى، فقد تضمنت رسالته الخاتمة . سبحانه . ما يهدى الناس إلى ما يريحهم ويسعدهم، ويحل مشكلاتهم.

ولكن ما يؤخر المسلمين عن تقديم النموذج الاسلامى الذى ينتشل العلم من أزماته هو الجمود الفكرى السائد والشامل وطويل الأمد. لأن الأمة عندما واجهت مشكلات وقضايا جديدة، فإن الفقهاء لم يقدموا هذا الفقه المناسب للتصرف فى تلك المواقف بسبب قصورهم فى معرفة سنة الرسول الرحبة فى السياسة الشرعية، وكانت نتيجة الجمود نشوء ظاهرة تجاوز الشرع أحيانا لمواجهة قضايا عجز الفقهاء عن الوفاء بمتطلباتها الجديدة.. وخلاصة الخلاصة: أن الجمود قاد إلى مفاسد عديدة، منها الافتئات على الشريعة، ومصالح الناس.

كذلك هناك سبب آخر لعجز المسلمين عن القيام بدور فاعل فى المشاركة الجادة فى صياغة مستقبل البشرية ومصيرها هو الانبهار السلبى بالغير وتقليده بلا وعى.. ونقصد بالانبهار السلبى: الولع بتقليد الغرب فى أخطائه النفسية والاجتماعية والفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والتشريعية، على حين كان الانبهار الإيجابى يقتضى تقليده في التفوق فى العلوم التجريبية مثل البحث العلمى وتطبيقاته.. ومن صور الانبهار والتقليد السلبى أن الغرب اضطر لأسباب معروفة ووجيهة هناك لطرح الدين وإقصائه حين أراد أن ينهض ويتقدم فجاء المنبهرون سلبيا من المسلمين ليقولوا: ونحن المسلمين لا سبيل إلى تقدمنا ونهضتنا إلا هجر الدين والتحرر من قيمه وعقائده وشرائعه.

ولذلك للخروج من تلك الأزمة يجب الرجوع إلى الله والبعد عن المعاصى ليمكن لنا فى الأرض ونفوز بالآخرة ومن يريد أن يبتعد عن الأزمة المالية الحالية أن يمتثل لقول الله عز وجل فى كتابه العزيز (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب).

ويجب الابتعاد عن الربا بكل أشكاله وصوره لأن الله يقول فى كتابه العزيز (يمحق الله الربا ويربى الصدقات).

والمحق حسى ومعنوى ، فيذهب ببركة المال فلا ينتفع به صاحبه، أو يذهب بالمال كلية كما سمعنا عن تبخر ترليونى دولار فى خمسة أيام من أموال مصلحة التقاعد الأمريكية.. وقد أدت الأزمة حتى الآن إلى اختفاء ١٦ بنكا من الساحة، من بينها بنك «إندى ماك» الذى يستحوذ على أصول بقيمة ٣٢ مليار دولار، وودائع تصل إلى ١٩ مليار دولار. بل طالت عملية الإفلاس سبعة بنوك كبرى فى أوروبا.

ويتوقع بعض المحللين أن يتم إغلاق ما يقرب من ١١٠ بنوك تصل قيمة أصولها إلى حوالى ٨٥٠ مليار دولار بحلول منتصف العام القادم.

فإن لم تبتعدوا عن الربا فاقرأوا قول العزيز القدير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ سورة البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

وهذه الحرب تتحلى اليوم بصورها المتنوعة: على الأعصاب والقلوب.. على البركة والرخاء.. على المال والقوة.. على السعادة والطمأنينة.. إنها حرب القلق والخوف.. الساحقة الماحقة من جراء النظام الربوى المقيت.

فعودوا إلى الله والتزموا بآياته وأحكامه فإن الله يمهل ولا يهمل فقد أمهلهم وهم يتعاملون بالربا، ويأكلونه أضعافا مضاعفة، ويحاربونه تعالى على مر السنين، حتى أخذهم بالنقص والبوار، كما فعل مع فرعون وقومه من قبل: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ سورة الأعراف : ١٣٠.